الأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس -
الوسطية والسلام الفكري العالمي

شارات وإضاءات

- إن أي مجتمع في بدايته لا يكون قد شاد بعد «عالم أشيائه»، بل كل ما هنالك أن «عالم أفكاره» يبدأ في التكوين، دون أن يشتمل - أحياناً - إلا على بوادر تفكير إيديولوجي.
- إن النشاط الاجتماعي والثقافي لفكرة ما مرتبط في الواقع ببعض الشروط النفسية الاجتماعية التي بدونها تفقد الفكرة فاعليتها.
- وإذاً ففاعلية الفكرة رهن بشروط نفسية واجتماعية؛ تتنوع بتنوع الزمان والمكان.
- من مظاهر الخلل الخلط بين صحة الأفكار وفعاليتها، فإن (فكرة أصيلة لا يعني ذلك فعاليتها الدائمة. وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة، والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة تلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم).

مالك بن نبي - (مشكلة الثقافة - مشكلة الأفكار)

الوسطية.. من إلى السلام الفكري العالمي

- لا أريد أن أقفز إلى (السلام الفكري العالمي) الذي تحققه الوسطية، على أساس أن هذا السلام إنما هو نتيجة طبيعية للمنهجية الوسطية، في عالم الفكر أو في عالم الحوار الفكري، والثقافي العالمي القائم على الموضوعية الكاملة التي تعلمها لنا الآية القرآنية ((قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)) (آل عمران: ٦٤) والآية الأخرى: ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) (سبأ : ٢٤).

- إن هذا (السلام الفكري العالمي) هو مرحلة تالية للسلام الفكري الذي يجب أن يتحقق في داخل الإنسان المسلم الفرد... وفي داخل الأسرة المسلمة، التي تمثل الخلية الأساس التي يقوم عليها المجتمع، ومن ثم (السلام الفكري) الذي يجب أن يتحقق في داخل المجتمع الإسلامي... والحضارة الإنسانية!

- إن (السلام الفكري) الذي ينبغي أن تبرز إشعاعاته وتجلياته عبر ثلاثية الفرد - رجلاً كان أو امرأة - والأسرة.. والمجتمع.. هو الطريق الأكثر فعالية وجذباً.. لتحقيق السلام الفكري العالمي...

- ولئن كانت الوسطية هي المنهجية المعتمدة في كل هذه المراحل، فإن الحصاد (السلام الفكري) سيكون إفرازاً طبيعياً لكل مرحلة سابقة... ومن ثم يعمل عمله في المرحلة التالية، وتكتمل دوائر السلام في داخل الكيان الإنساني كله.

- في بداية الدعوة نزل الوحي على رسول الله (عليه الصلاة والسلام) يأمره بتحقيق القراءتين المعرفية والكونية، حتى ولو كان أمياً. فالتعامل مع المعرفة أو الثقافة والكون لا يقتضي بالضرورة الإلمام بالكتابة والقراءة بمعناهما الحرفيين.

- فكم تعامل فلاسفة في العصر اليوناني وأبدعوا - حتى وإن كانت لهم أخطاء - مع المعرفة والكون دون أن يمتهنوا القراءة والكتابة.

- وكم ظهر فلاسفة في الهند والصين ومصر، وكانوا عباقرة؛ مع أنهم لا يعرفون القراءة والكتابة...

- وتعويضاً عن القصور في المجال المعرفي التقليدي القائم على التراكم الكمي المعرفي - ركزوا على تراكم الكيف المعرفي من خلال التدبر العميق في الآيات الكونية.. وفي آيات الوحي التي من الممكن أن تكون قد وصلت إليهم...

- إن المنهجية الوسطية - في شتى مجالاتها - هي التي أضاءت الطريق لتحريك الإرادة الإنسانية في اتجاه المزج بنسب متوازنة بين عناصر الحضارة من عقل وعقيدة، ومادة (تراب)، ووقت، وبهذه المنهجية استطاع الإنسان امتلاك (رأسمال حضاري فطري) وتقدم هذا الإنسان - من خلال عالمه الهادئ الفطري جداً - من خلال هذه الخمائر الأولية للحضارة، يشق طريقه نحو عالم الإبداع في عالم الجامعات والطائرات ووسائل الاتصال المختلفة.

- فالتناغم الفكري الذي يربط بين العقل والقلب والمادة والروح... دون صراع، هو السبيل لميلاد (إنسان) يتميز بالعدل مع نفسه ومع كل القوى من حوله...

- وهو السبيل لميلاد (أسرة) تقوم على عنصري التكامل العادل، والتراحم النفسي والوجداني.

- وهو السبيل لميلاد (مجتمع) تنتظمه الوسطية في كل أموره ويحتكم إليها كل أعضائه، رجلاً كان أو امرأة، غنياً أو فقيراً، حاكماً أو محكوماً.. قوياً أو ضعيفاً، شرقياً أو غربياً... فكلهم راضٍ بما أراده الله له، متفاعل من خلال الموقع الذي وضعه الله فيه، وهو يتكامل مع الآخرين، ولا يصطدم بهم، لأن ميزان الوسطية العادلة يحكم الجميع.

- إن الوسطية تعني - في مجمل دلالاتها المعجمية والاصطلاحية - العدل والتوازن، والقصد، والاستقامة، وإنصاف الآخرين، والموضوعية، والخيرية القيمية والعقدية التشريعية...

ولهذا سميت الأمة الإسلامية بالأمة الوسط ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)) (البقرة: ١٤٣) أي لتكونوا الأمة المعتدلة التي تعيد الناس إذا ما جنحوا وازدوجت

معاييرهم إلى الصراط المستقيم.. صراط البُعد عن الإفراط والتفريط والظلم، في حالتي الرضا والبغض، والسلم والحرب، والقوة والضعف... صراط إشباع جوانب المادة والعقل والروح، في نسيج واحد، وبنسب متوازنة... بصراط التدرج والتكامل بين حقوق الإنسان الفرد، وحقوق الأسرة، والجيران، مسلمين وغير مسلمين وحقوق الوطن - بكل شرائحه - وحقوق الأرحام.. وحقوق الله... قبل كل ذلك، وفوق كل ذلك.

§ § §

إن الوسطية - إلى جانب معانيها اللغوية والاصطلاحية الدالة على العدل والخيرية والتوسط والتوازن، تحقق - وظيفياً - لكل إنسان - (السلام الفكري والروحي) المستمد من ابتعاده عن النظرة الجانحة إلى الانحراف، إفراطاً وتفريطاً، والتي تريد - تحت ضغط الخوف من الله (التقوى) والمغالاة لدرجة الخروج عن شمولية الجوانب. والاكتفاء بتكثيف جانب على حساب جانب. وإهمال ما أتاحه الله من جوانب ضرورية لتعمير الكون وتحقيق الاستخلاف.

- وما نظن بهؤلاء النفر الثلاثة الذين تقالّوا عبادتهم، فقرر أحدهم أن يصوم فلا يفطر، وقرر الثاني أن يقوم الليل ولا ينام، وقرر الثالث أن يحرّم النساء على نفسه. ما نظن بهؤلاء الثلاثة إلا أنهم في قمة الإخلاص والتجرد والعبودية الكاملة لله... لكن هؤلاء الثلاثة - لو مشوا في الطريق الذي أرادوه - سيكونون من أبعد الناس عن (الوسطية) الضابطة لإيقاعات النشاط الدنيوي والأخروي وإبداعاته. وسوف يجدون أنفسهم - بعد فترة وجيزة- قد فقدوا السلام الفكري الداخلي، نتيجة اضطراب القوى والنزعات والإمكانات الداخلية... فللجسم حاجاته، من الغذاء والجنس والترويح والنوم. وللمجتمع - كذلك - حاجاته، كما أن العمل والكدح في الأرض سنة من سنن الوجود، وكل ذلك يحتاج إلى جسد وعقل مؤهلين قادرين على تحقيق الفعالية وشروط الاستخلاف.
- ولهذا عالجهم الرسول (بالوسطية الإسلامية)، وبين لهم أنه - وهو أتقاهم لله وأخشاهم له - يصوم ويفطر ويقوم وينام ويتزوج النساء، وأن هذه (الوسطية والتوازنية) من شأنها أن تحقق أفضل الصلات لله إن توافرت لها كلها نية العبادة وحسن الغاية.
- وأن هذه الوسطية المحققة للسلام الفكري المنتظم لشتى شؤون الحياة هي سنته وطريقته، ومن رغب عن سنته (عليه الصلاة والسلام) فليس منه. أي ليس مؤمناً بسنة الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وليس - من ثم - على نهج القرآن والسنة الشريفة.
- ولنلاحظ هنا إشارة الرسول (عليه الصلاة والسلام) الرائعة حين بين لهؤلاء النفر الثلاثة - أنه مع ممارسته لكل جوانب العبادة والحياة - أتقاهم لله وأخشاهم لله. فكأن هذه الممارسة (الوسطية) هي المحققة الحقيقية للتقوى والانسجام الفكري والروحي.
- أما المنهج اللاوسطي القائم على رفض الحياة وإغفال حق الطاقات المختلفة الضرورية، وتكثيف العبادة في جانب على حساب الجوانب الأخرى، فحسبه أن الرسول رفضه،

وأظهر شيئاً من الغضب عندما سمع به. وأظهر خروجه عن منهجه للأمة كلها. حتى تعلم الأمة طبيعة هذا الدين - ومن ثم - تعمل في إطار الوسطية العادلة.

§ § §

- السلام الفكري العالمي

• فإذا انتقلنا من مستوى الفرد والأسرة والمجتمع الإسلامي إلى مستوى السلام الفكري العالمي الذي يؤصله الإسلام، من خلال التنظير الفكري (القرآن والسنة)، ومن خلال السلوك الإسلامي الوسطي مع العالم الذي يقوم على احترام فكر الآخرين وحريتهم العقدية والتعايش مع أفكارهم بعيداً عن الإكراه أو التشويه والسب والقذف اللاأخلاقي (كما يفعل هؤلاء الرسامون والإعلاميون والفنانون في الغرب حين يسيئون إلى الرسول والمسلمين في جميع الأرض). قال تعالى: ((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) (البقرة: ٢٥٦)، وقال تعالى: ((وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)) (الأنعام: ١٠٨).

- ولقد سعى الإسلام إلى أن تقوم بين الناس (علاقات إنسانية) في السلم وفي الحرب، والعلاقات الإنسانية أزكى وأشمل من العلاقات القانونية والدولية والرسمية، ذلك لأن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه أخ للإنسان، وكل الناس مخاطبون في القرآن بعبارات تدل على هذه الشمولية؛ التي لا تفرق بين الناس من ناحية الأصل والحق الإنساني... يقول الله تعالى في كتابه الكريم ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)) (الحجرات: ١٣)، ويقول: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)) (الإسراء: ٧٠)، ويقول: ((يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)) (الإنشقاق: ٦)، وعندما مرت جنازة يهودي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام الرسول إجلالاً لهذه الجنازة، أي لهذا الإنسان الذي أنهى رحلة الدنيا وهو الآن يعبر إلى الآخرة ليلقى ربه بما كسبت يداه «فملاقيه»؛ فالرسول يستشعر عمق هذه اللحظة وروعتها، ويعرف ما وراءها، فهذا الإنسان المكرّم ليس حيواناً يساق إلى مكان الذبح؛ بل هو إنسان كان له عقل وبصمات في هذه الحياة، إيجابية كانت أو سلبية، ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)) (المؤمنون: ١١٥)، إن هذا الإنسان (الميت) اليهودي إنسان على أية حال وتربطه بالجماعة الإنسانية علاقة إنسانية يجب أن تقدر في كل الأحوال.

وجدير بالذكر أن هذه العلاقة لا ترتبط بدين أو وطن أو قوم أو حياة أو موت؛ ولهذا جسد الرسول هذه العلاقة؛ ليعطي للمسلمين وللإنسانية درساً لا يجوز أن ينسى أو يهمل؛ وعندما تساءل أحد الصحابة عن موقف الرسول التكريمي لهذا اليهودي رد عليه الرسول بعبارته الرائعة قائلاً: أليست نفساً، فالنفس عضو من أعضاء الكيان الإنساني؛ بصرف النظر عن عضويتها القانونية أو الدولية.

- لقد كان العدل - ولا يزال - أساس الملك، وأساس العلاقات الإنسانية؛ (والعدل هو الوسطية) أما الحرية والمساواة فيقومان في الإسلام على أساس العدل، وإلا فهما امتداد ظالم على حساب حقوق الآخرين، فحين تمتد الحرية الفردية لتلتهم حقوق الأفراد الآخرين؛ فإنها تتحول إلى ظلم وتصبح عبئاً على العلاقات الإنسانية، وكذلك حين يتساوى الخامل مع العامل، والجاهل مع العالم، والضعيف مع القوي يختل الميزان، ويرتفع السفلة والأراذل على حساب المجدين والأذكياء، ويوسّد الأمر إلى غير أهله وتختل موازين الحق والعدل، وتضيع معالم الوسطية الفكرية والروحية والأخلاقية بصفة عامة.

لقد كان من الضروري أن يكون لدى الوسطية الإسلامية مشروعها للسلام الفكري العالمي وذلك لأن الإسلام دين عالمي بطبيعته، وتتمثل هذه الطبيعة العالمية في الإسلام القائم على العدل والرحمة في جوانب ثلاثة أساس وهي:

أ- عالمية الزمان، فهو الدين الخاتم، الذي ليس بعده دين حتى آخر الزمان.

ب- عالمية المكان، فهو الدين الذي حطم الله به الحدود المكانية.

ج- عالمية معالجة القضايا المتصلة بالإنسان، علاجاً يتفق مع الطبيعة الإنسانية في مراحل حياتها المختلفة.

ومن جانب آخر ترتكز هذه العالمية الإسلامية على عدة مبادئ منها:

١- وحدة الأصل الإنساني.

٢- الهدف من تلك التجمعات البشرية.

أما المبدأ الأول: فقد ظهر في مثل قوله تعالى: ((يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)) (النساء: ١).

وأما المبدأ الثاني: فيظهر في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)) (الحجرات: ١٣)، فالتعارف وليس التدابر هدف أصيل يسعى القرآن الكريم إلى تأكيده بعد تأكيد وحدة الأصل البشري، وفي ظل هذين المبدأين يسقط من حساب الإسلام الصراع بكل مظاهره وأشكاله، ليتأكد معنى الوحدة الإنسانية العالمية كأظهر خصائص هذا الدين، وفي ضوء ذلك كله، ينتهي دور الأخلاقيات غير الإنسانية - من الصراع والعنصرية والأثرة وهضم حقوق الآخرين واحتقارهم[١].

§ § §

وقد زعم بعض الجاهلين أن الإسلام ينكر الديمقراطية ويتخذ موقف الخصومة والعداء منها، ولا يبالي بحقوق الإنسان ولا يعمل على دعمها وتأكيدها... والحق أن الإسلام لا يعادي إلا التجاوز لحرمات الله وثوابت الدين، وكل ما لا يتجاوز هذا النطاق، فهو طيب، مباح، أو واجب.

والإسلام في الحقيقة أول من نادى بحقوق الإنسان وشدد على ضرورة حمايتها واحترامها، فمقاصد الشريعة الإسلامية تتمثل في حماية حياة الإنسان ودينه وعقله وماله وأسرته وعرضه وأمنه.

كما أكد الإسلام مبدأين أساسيين لحقوق الإنسان وهما الحرية والمساواة... في إطار العدل والشرع.

- والإنسان في المنظور الإسلامي - كل إنسان - مخلوق كرمه الله وأسجد له ملائكته واتخذه خليفة في الأرض ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)) (الإسراء: ٧٠).
- والحكم في الإسلام لا بد أن يقوم على أساس من العدل والشورى. والشورى مبدأ أساسي ملزم، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه ويأخذ برأيهم.
- وأتاح الإسلام الفرصة لتعدد الآراء، وأباح الاجتهاد وشجع عليه، حين جعل للمجتهد المخطئ أجراً، وللمجتهد المصيب أجرين ما دام المجتهد مستوفياً شروط الاجتهاد.

§ § §

وحتى في الحروب وهي كره للمسلمين ((كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ)) (البقرة: ٢١٦) تتمثل أسبابها في الدفاع عن النفس، وفي رد العدوان: ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)) (الحج: ٣٩).

بالإضافة إلى تأمين الدعوة إلى الله، وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها وللناس جميعاً لكي يعرفوها، ومن ثم يقررون رفضها أو قبولها بعد أن يعرفوها من مصادرها الحقيقية.

ومن دوافع الحروب المشروعة المطالبة بالحقوق المسلوبة والمغتصبة، كما في فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وأيضاً نصرة الحق والعدل في أي مكان في العالم.

لكن هذه الحروب تخضع في الإسلام لضوابط تتجلى فيها الوسطية العادلة، حتى في أشد ساعات الحياة وفي صورتها الاستثنائية الشاذة وهي الحروب. ومن هذه الضوابط التي وضعها الإسلام عدم الاعتداء على المدنيين من شيوخ وأطفال ونساء وعبَّاد في دور عبادتهم، فلا قتال إلا مع المقاتلين، ولا عدوان على غير المقاتلين، شريطة ألا يساعدوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وإذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فيقبل منهم، بالإضافة إلى المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان، وكذلك المحافظة على البيئة، فينهى عن قتل الحيوان إلا أن يشارك في القتال، وتحريق الأشجار، وإفساد المياه والزروع والثمار، وتلويث الآبار، أو هدم البيوت أو اغتصاب النساء.!!

§ § §

القرآن والسلام الفكري

نزل القرآن على نبي أمّي، وعلى أمة أميّة، لكن هؤلاء الأميين كانوا يجلسون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزكيهم بالفكر الذي يحقق لهم الرقي الوجداني والعقلي، ويعطيهم مفاتيح بناء الحياة على السلام مع النفس والآخرين، قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)) (البقرة: ٢٠٨).

• وكان صحابة رسول الله -وهم أميون- يجلسون بين يديه وعن جانبه يتخولهم بالموعظة، ويغذيهم وينميهم ويطهرهم ويزكيهم بالمنهج الرباني الذي يتنزل عليه من السماء، ويقوم هو بتفسيره وتعليمه ليكون منهج صلاح وسلام للإنسان من داخله ومن خارجه. ومن خلال دروس القرآن التي ينقلها النبيّ ويشرحُها للناس حقّق للأميين رقياً فكرياً أصبحوا به خير أمة أخرجت للناس وخير سفراء للإسلام في أي مكان حلّوا فيه، وفي أي امتحانات أحاطت بهم. بهذه التربية القرآنية النبوية، تحقق لهم سلام فكري جعلهم دائماً يشعرون بالمسؤولية ويجتهدون للوصول إلى درجة الإحسان وهي أعلى مراتب الصفاء الفكري والطهارة السلوكية حين تُمارس العمل والعبادة على أساس أن الله يراك ويُراقبك في كل حركة وكلمة وفعل.

وقد انتصر هذا الفكر المرتبط بالروح والإيمان والمحرك لكل الفعالية الإنسانية - على عالم المحسوس والقيم المادية، فأصبح أبو بكر الصديق رضي الله عنه بفضل هذه التربية الروحية الفكرية - قادراً على أن يتبرع بكل ماله. وأصبح (عمر) قادراً على أن يتبرع بنصف ماله، وأصبح (عثمان) رضي الله عنه قادراً على أن يتنازل عن كل قافلته التجارية لوجه الله، مع أن تُجَّار المدينة ساوموه على أن يعطوه ربحاً عظيماً، وأصبح الأنصار قادرين على تقديم أعظم نموذج إيماني عرفه التاريخ، حين خلطوا إخوانهم المهاجرين بهم، وقاسموهم أموالهم، وكان هذا بدافع الحبّ والإيمان والتربية الأخلاقية النبوية بعيداً عن أية شوائب مصلحية. قال تعالى: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) (الحشر: ٩).

ويضرب العلامة الجزائري مالك بن نبي مثلاً على تألق الروح والفكر فوق كل مستويات الواقع المادي المحسوس. وذلك في شخصي بلال بن رباح أولاً، (والغامدية) - المؤمنة العظيمة (الزانية) - ثانياً. فعندما يتحرر الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور في جسده، ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، فإنه يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح. وهذا القانون نفسه هو الذي كان يحكم بلالاً حينما كان تحت سوط العذاب يرفع سبابته ولا يفتر عن تكرار قولته المعروفة «أحد!. أحد!.» إذْ من الواضح أن هذه المقولة لا تمثل صيحة الغريزة فصوتُ الغريزة قد صَمَتَ، ولكنه لا يمكن أن يكون قد ألغي بواسطة التعذيب. كما أنها لا تمثل صوت العقل أيضاً؛ فالألم لا يتعقل الأشياء[٢].

إنها صيحة الروح التي تحررت من إسار الغرائز بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائياً في ذاتية «بلال بن رباح»... وصيحة الروح هذه إنما تألقت وتفوقت بتأثير الفكر الذي غرسته التربية النبوية القرآنية فيها... ولهذا تساوت الروح مع الكلمة، وورد في بعض الكتب المقدسة أنه في البدء كانت الكلمة... كما ورد أنه في البدء كانت الروح!! وقد كان المجتمع الإسلامي يحكمه هذا التغير نفسه فقد كان شأنه شأن «بلال». لا يتحدث بلغة غريزة اللحم والدم من ناحية، كما أن صوت العقل - بمعادلاته الجامدة - كان لا يزال صامتاً في هذا المجتمع الوليد من ناحية أخرى. واللغة السائدة في هذا العصر كانت روحية المنطق، إذ هي بنت الروح - أولاً - وقبل كل شيء وأيضاً بنت الفكر المستقى مباشرة من فم النبي العظيم ناقل القرآن ومفسره.. إنها الروح في صوت بلال؛ كانت هي التي تتكلم، وتتحدى بلغتها الدم واللحم، كما أن ذلك الصحابي - بلالاً - كان يتحدّى بسبابته المرفوعة، وهو يقول «أحد. أحد» الطبيعة البشرية، ويرفع بها في لحظة معينة، مصير الدين الجديد. كما أنها هي نفسها التي كانت تتحدث بصوت تلك «المرأة الزانية» (الغامدية)[٣] التي أقبلت إلى «الرسول» لتعلن عن خطيئتها وتطلب إقامة حدّ الزنا عليها بإصرار - لا حدود له. فالوقائع هذه جميعها تخرج عن معايير الطبيعة المادية والغرائزية وتخضع لموازين الروح والكلمة وحدهما.

§ § §

القرآن والوسطية واستمرارية السلام الفكري

لم ينشئ القرآن جيل الصحابة الذي رباه الرسول صلى الله وعليه وسلم وحسب، بل امتدت أشعته، وما يقدمه من إضاءات فكرية فاعلية في التاريخ، وإلى يومنا هذا، وإلى يوم القيامة.. فهو - كما وصفه أحد المستشرقين - ما زال غضاً طرياً كأن عهده بالوجود أمس. فالقرآن -بإضاءاته وإشعاعاته- هو هو لم يأته الباطل قط، ولم يعمل فيه البشر، حتى ولو تآمر بعض البشر عليه، وحاولوا تحريفه، كما حاولت كثير من الترجمات (لمعانيه) إلى اللغات المختلفة، بتأثير الضغط الكنسيّ، ولكن كل ذلك ذهب كما ذهب كلُ زبد، وكل زيف، وبقي القرآن الذي تعهد الله بحفظه - كما هو - ناطقاً بالحق، حجةً على البشرية، مهيمناً على ما سبقه من كتب نُسبت إلى الله، وأكثر صفحاتها تحتشد بما لا يليق بجلال الله وعظمته ووحدانيته، وبما لا يليق بعصمة الأنبياء وكرامتهم الإنسانية، وبمنزلة الاصطفاء. لكن المشكلة عبر العصور جاءت من المتلقي، الذي تغير قلبه، واختلط، بكثير من الشوائب، وجدانه وعقله، ولم يعد هو الإنسان الصحابي أو التابعي... بل غيّر وبدَّل، وحاول التلفيق، فضاع سلامه الفكري الداخلي، واختلت موازينه في التعامل الخارجي، وفَقد إشعاع القرآن والعبادات، وانضباط عالم المعاملات، ولم يعد (وسطياً) ينتمي إلى أمة الوسطية الشهيدة على الناس الآمرة - بالفعل والقول - بالمعروف، والناهية - بالفعل والقول - عن المنكر. والمؤمنة بالله إيماناً مطلقاً واثقاً لا يتزعزع ولا يهن ويخور أمام جبابرة العالم وطغاته ومنحرفي العقل باسم العقلانية.

§ § §

إن القرآن قادر - لو فتح الناس قلوبهم له كما فتحها الصحابة والتابعون - في كل وقت على إخراج أجيال قريبة من الأجيال السابقة، ذلك أن القرآن لا يعطي مدلوله الحقيقي ولا ينتج كنوزه ويكشف أسراره ويقدم ثماره إلا للمتلقي النقي التقي صاحب القلب المفتوح، والعقل الصادق الراغب رغبة حقيقية في تعلمه والاستفادة منه والعمل بمقتضاه، وقد ورد عن بعض الصحابة رضي الله عنهم قوله: كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن»، ولذلك كانوا يتذوقون القرآن ويتفاعلون معه، ويدركون معانيه وأهدافه، ويصنعون به ذلك التاريخ المجيد الذي صنعوه في أقصر وقت وبأقل التكاليف ((فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) (الأعراف: ١١٨). ولنلاحظ هنا الجمع بين النذير والبشير، أي: الوسطية.. في الترهيب والترغيب. وكما أحسن الصحابة فقه كتاب الله، علينا أن نحسن نحن أيضاً هذا الفقه، ونعمل بتوجيهاته كما عمل الصحابة...

فحين عَرَّف القرآن الصحابة أن الله سميع بصير وأنه ((مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) (المجادلة: ٧)، و ((يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)) (سبأ: ٢) وأن ((كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)) (المدثر: ٣٨)، قويت مراقبتهم لأعمالهم ومحاسبتهم لأنفسهم، بفضل ما حصل لهم من اليقين بأن الله تعالى يراهم ويحاسبهم على أعمالهم. وحين علموا أن الله ((بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)) (المؤمنون: ٨٨)، وأنه ((لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) (الزمر: ٦٣)؛ مات في نفوسهم التطلع لغيره تعالى، وقوي عندهم التطلع إلى الله، والتوكل عليه وانتظار الفرج منه، وعدم خشية الجبابرة والطغاة، وتربوا على مواجهة الضراء بالصبر، والسراء بالشكر. وحين علموا أن سبحانه ((هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)) (الذاريات: ٥٨). وأنه ((يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)) (الرعد: ٢٦) وأنه ((مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)) (فاطر: ٢)، أيقنوا بأن الرزق من الله، فلم يعد أمره يقلقهم ولا يشغلهم، فلم تذلّ قلوبهم لأحدٍ من البشر، ولم ينكّس رؤوسهم الطمع ولا البخل.

وحين علموا أن الله هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يملك أمر الدنيا والآخرة، تعلقت قلوبهم بالله في السر والعلن، وتحررت نفوسهم من الخوف والجبن، وأصبح ذكر الله سبحانه حياً في قلوبهم. وحين علموا أن الله يثيب على الحسنة بعشر أمثالها وقد يزيد، ويعاقب على السيئة بمثلها وقد يعفو، وأنه تعالى أعد الجنة للمؤمنين، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأعد النار للكافرين، وفيها من العذاب ما تهون أمامه جميع شدائد الدنيا، تخلصوا من شهوات المال والجنس وظلم الآخرين والاستعلاء عليهم، واستعلوا على شهوة الغمز والتجريح، وشهادة الزور وحب الانتقام والتشفي، وتحرروا من الشح والخوف، والاستسلام لعواطف القرابة أو الصداقة أو الجوار[٤]، أو الجوانب المؤثرة الأخرى.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم، يحرصون على اتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم وتمثّل أخلاقه والتقليد له في عبادته لله ومعاملته للناس، لعلمهم أن ذلك هو شرط رجاء الله واليوم الآخر ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)) (الأحزاب: ٢١)، ((وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) (النور: ٥٢، ٣٢).

ولعلمهم بأن الفعل هو الثمرة المقصودة بالقول، والأقوال والنصوص اللفظية في حقيقة أمرها أدوات لتبليغ أمر الله ونهيه، فإذا لم يتبعها صاحبها بالعمل والتطبيق وقع في دائرة المقت ولامس قلبه والعياذ بالله النفاق ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)) (الصف: ٢، ٣). وفي الحديث: «آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»[٥].

لقد كان كل واحد من الصحابة يرى أنه مؤتمن على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمل بهما والتبليغ لهما وحراستهما من محاولات تحريف الغالين، وزيغ المبطلين، وعبث المبتدعة والمفسدين، وتعطيل الظلمة والمستبدين، فكل واحد كان حارساً على الإسلام مبلغاً له مدافعًا عنه بماله ونفسه ورأيه، وبكل ما آتاه الله تعالى من قوة لا يؤتى الإسلام من قبله[٦].

لقد كان كل واحد منهم رضي الله عنهم كما يقول الشيخ البشير الإبراهيمي «يقظ الضمير، متأجج الشعور، مضبوط الأنفاس، دقيق الوزن، مرهف الحس، متتبعاً لما يأتي الناس وما يذرون من قول أو عمل، سريع الاستجابة للحق إذا دعا داعيه، وإلى نجدته إذا ريع سربه، أو طرق بالسر حماه».

«كانوا يأخذون أنفسهم بالفزع لحرب الباطل لأول ما تنجم ناجمته، فلا يهدأ لهم خاطر حتى يوسعوه إبطالاً ومحواً، ولا يسكتون عليه حتى يستشري شره ويستفحل أمره فتستغلظ جذوره ويتبوأ من نفوس العامة مكاناً مطمئناً».

«وكانوا يذكرون دائماً عهد الله، وأنه أخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، وأن الحق هو ما جاء به محمد عن ربه لهداية البشر وصلاح حالهم».

«وكانوا يزنون أنفسهم دائماً بميزان الكتاب والسنة، فما وجدوه من زيغ أو عوج قوّموه في الحال بالرجوع والإنابة، كما يفعل المفتُونون بالجسمانيات في عصرنا هذا في وزن أبدانهم كل شهر»[٧].

§ § §

ولتأكيد منهج الوسطية في تحقيق السلام الفكري، أقام الإسلام شرائعه على التدرج والبدء بالأهم فالمهم، والابتعاد عن مسائل الخلاف والأخذ بالتيسير وانتهاج التبشير والترغيب. قال

تعالى: ((وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)) (الحج: ٧٨)، ((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)) (البقرة: ٢٥٦).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا[٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة (آخر الليل)»[٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[١٠].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خيَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى»[١١].

لقد أكرم الله سبحانه صحابة رسول الله إكراماً ليس له مثيل، لاتّباعهم منهج رسول الله في العدل والرحمة والأخذ بأسباب القوة، فجعلهم نجوماً بأيها اقتدينا اهتدينا، وأكرم البشرية فنقلوا لها الإسلام كما أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم وحكموه فيها وأقاموا حياتهم على هداه، فعمَّ نوره أرجاء الأرض وأضاء دربها ومسالكها المختلفة، وأنار جوانب النفس البشرية بالعقيدة والعبادات الصحيحة والآداب الرفيعة والخلق القويم، ولجم شهواتها وقيد هواها بالأوامر والنواهي الربانية التي لا خيار معها ولا مراجعة فيها، فانتقلت البشرية التي دانت به من الجهل إلى العلم، ومن الضلالة إلى الهدى ومن الخوف إلى الأمن، ومن الفوضى إلى النظام، ومن التباغض إلى التَحَابْ، ومن التنابذ إلى التآخي، ومن التنافر إلى التعارف، ومن الاضطراب إلى الاستقرار، ومن الاستبداد إلى العدل.

لقد قاد الإسلام العالم الإسلامي الذي آمن به، وخضع لأحكامه، إلى السعادة والخير بأصلين كبيرين هما (القوة المصحوبة بالرحمة) ووسيلتين كبيرتين من وسائله في إرساء النظام والأمن والاستقرار وهما (العدل المتبوع بالإحسان) وبأحكامه الهادية للتي هي أقوم في عمارة الأرض وبناء الدولة وإصلاح المجتمع وتربية الأفراد[١٢].

إن القوة وحدها لا خير فيها، لأنها استبداد واستغلال واستعباد وقهر، والرحمة وحدها لا خير فيها، لأنها ضعف وخور وهوان، والعدل وحده لا يكفي لأنه قد يفضي إلى الجفاء، والإحسان وحده لا خير فيه، لأنه قد يفضي إلى الاستهتار ويشجع على التمرد، أما إذا اجتمعت القوة والرحمة، وتكامل العدل والإحسان، فإن الخير يعم والحقوق تحفظ، والتكامل يتحقق بين شرائح الأمة ونخبها المختلفة، وصولاً إلى التقدم والترقي والكمال الذي تستطيعه الطبيعة البشرية.

الأخلاق الوسطية... والسلام الفكري

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو المسلمين إلى التفاؤل، انطلاقاً من تحريم القرآن لليأس، تطبيقاً لقوله تعالى: ((وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)) (يوسف: ٨٧).

وعندما رأى رجلاً مهموماً يجلس في المسجد وعرف أن عليه ديناً يؤرقه، فتح له مفاتيح الأمل. حين نصحه بأن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن ومن العجز والكسل ومن الجُبن والبخل ومن غلبة الدين وقهر الرجال». ولا شك أن أكبر طارد للهمّ، وأكبر عامل في تحقيق الانسجام الروحي والفكري، هو الرضا بقضاء الله وقدره مع الأخذ بسنن الله في التغيير.

لا شك أن أكبر عامل لتحقيق هذا الهدف النفسي والأخلاقي، هو التوسط والتوازن في التعامل مع الخير والشر، والسّراء والضراء، والصديق والعدو، والمسلم وغير المسلم.. وفي هذا الإطار نجد بين أيدينا فيلسوفاً مسلماً مثل أبي محمد علي بن سعيد بن حزم (ت / ٤٥٦هـ) يرى أن الحياة الاجتماعية تدور حول هدف واحد يراه غاية النشاط الإنساني كله، فكرياً أو سلوكياً، وهو هدف (طرد الهمّ)، وهو - كما يقول ابن حزم - غرض يستوي الناس كلهم في استحسانه، وطلبه، ولا يتحركون حركة بل ولا يتكلمون كلمة إلا من أجله. فمن مخطئ وجه سبيله ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب[١٣] وهو «هدف قد اتفقت الأمور كلها عليه.. وكل الأهداف الأخرى لا تحظى بمثل الإجماع المعقود عليه، إذْ في الناس من لا دين له.. ومن لا يستحسن أذى الناس.. ومن يريد الخمول على الصيت والشهرة.. ومن لا يريد المال.. ومن يبغض اللذات.. ويؤثر الجهل على العلم، وليس في العالم كله من يستحسن الهم ولا يريد طرحه[١٤]. وليس من سبيل لطرد «الهم» إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة[١٥].

ويكاد ابن حزم يشير إلى دور (الوسطية) في طرد الهموم والمؤرقات والصراعات الفكرية الداخلية، حين يرى أهمية الجمع بين (اللذات المعنوية والحسية).. لكنَّ (ابن حزم) يفضل (اللذات المعنوية) على اللذات الجسمية معتمداً على مقياس مقنع وهو أن الذين يلجأون إلى اللذات الروحية، يفضلونها على اللذات المادية، وهم قد ذاقوا من اللذات المادية وعرفوا... وقارنوا، وفضّلوا اللذات المعنوية، أما أصحاب اللذات المادّية فلم يجرّبُوا اللذات الروحية فالأولون أصدق حكماً[١٦].

ويرى ابن حزم أن هناك مرضين لهما خطورة كبيرة على السلام الفكري في مستوى الفرد والمجتمع، وهذان المرضان هما العُجب والكذب. ويرفض ابن حزم العُجْب (الكبر) في كل حال. فسواء كان مصدره «الفضل»[١٧] أو «الفعل»[١٨] أو «الشجاعة» أو «الجاه» أو «المال»[١٩] أو «الحسن» أو «النسب»، فكل ذلك يدل على نقص، وهو مرض يحتاج إلى علاج، وهذا المرض يتفرع عنه التّيه والزهو والكبر والنخوة والتعالي[٢٠] ورفض فكر الآخرين - ابتداءً من باب التضخم الذاتي والاستعلاء الفكري. أما الكذب - فهو الداء الذي لا برء منه عند ابن حزم، فما

رؤي قط كذاباً ترك الكذب ولم يُعد إليه، وهو أصل كل فاحشة وجامع كل سوء، وجالبٌ لمقت الله عزَّ وجل[٢١] وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل[٢٢] أي أن الكفر جزء من الكذب.

وفي إطار اهتمام الوسطية الإسلامية بالأخلاق كطريق لتحقيق السلام الفكري الفردي والجماعي، شرع الإسلام للحاجات المادية، وأعطاها حقها من الوجود والفعالية والتكريم، ولم يركز على الروحانيات وحدها، على أساس أن الحاجات الأولى لا تشبع العلاقات الإنسانية وحدها، والثانية وحدها لا تصلح كذلك للحياة وحدها تعميراً أو تنمية، ومن هنا ربط الإسلام ربطاً عجيباً متناسقاً بين الروح والمتطلبات المادية، وتميزت وسطيَّته في بنائه للسلام الفكري داخل الكيان الإنساني من خلال آليات تغرس في الإنسان القيم الإيجابية مثل قيم الحق والعدل والصدق والتواضع، وحب الآخرين والرحمة، وتدرّبه على أن يكون كائناً أخلاقياً على نهج الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي حصر إرسال الله له في أنه بُعث ليتم - بعد غرس عقيدة التوحيد - مكارم الأخلاق[٢٣]. بينما حصر الله رسالة نبيه عليه السلام في أنه أرسله رحمة عامة ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)) (الأنبياء: ١٠٧).

§ § §

لقد كان الرسول آية في الرفق والرحمة بالخدم وبالضعفاء. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلُقاً» متفق عليه. وعنه رضي الله عنه قال: «ما مَسَسْتُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي قطُّ أفٍّ، ولا قال لشيء فعلته: لمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟» متفق عليه. أيُّ أخلاق هذه وأي سمو هذا؟ إنه الكمال البشري في أبهى صوره وأشكاله، وكم كان الإسلام عظيماً ونبيه صلوات الله وسلامه عليه يخالف الأعراف القائمة وقتها بقوله: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» رواه مسلم.

وهذا السلوك النبوي دَرْسٌ لأدعياء الرحمة الكذابين الذين يرفعون الشعارات الجوفاء، ويمارسون أقسى وأعنف الجرائم في حق كل من يقع تحت أيديهم من الشعوب ومن الأفراد، فتحت ذريعة تحرير البلاد والعباد وترسيخ الحرية والديمقراطية، خربوا البلاد واسترقوا الأحرار من العباد وساموهم صنوف العذاب في أبي غريب وغوانتنامو وفي سجون الكيان الصهيوني، وحتى في حق كل الشعوب الإسلامية والعربية.

وبالإضافة للتوجيهات التربوية التي تزرع القيم الإيجابية - ثمة توجيهات أخرى تقوم بتطهير عالم النفس الداخلي، واجتثاث القيم السلبية مثل أمراض الحسد والحقد والغش والظلم والأثرة وغيرها.

كما أن هذه الوسطية تتمثل في المحافظة على حقوق الإنسان الفكرية والعملية دون تفرقة بسبب اللون أو المال أو التعليم - شريطة أن تتوازن الحقوق مع الواجبات - وقد حفلت نصوص الوحي بالحث على العدل والخير والإحسان لكل البشر، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، أي لكل خلق الله من البشر في أوقات السلم وفي أوقات الحرب، وفي الموادعة أو الخصومة. فالعدل غير محدّد بالظروف أو الاعتبارات المصلحية أو الزمان أو الأجناس، بل هو فوق كل الاعتبارات، وهو صمام أمان لتحقيق السلام الفكري في إطار الفرد والمجتمع الإنساني كله!!

إن هذا الطابع العالمي للرسالة الإسلامية، يجعل الوسطية وتحقيق السلام الفكري العام خصيصة أساسية في الأخلاق الإسلامية التي يجب أن تكون مطلقة تشمل كل الناس، وألا تكون أخلاقاً عنصرية تحترم قوماً وتجاملهم على حساب الآخرين - كما يقع الآن في عالم الإنسان الأول أو الأبيض الشمالي - فالأخلاق الإسلامية عكس ذلك، ولا تخضع إلا للحق وللعدل المطلقين، وللرحمة العالمية. ونحن نجد من فقهنا لرسالة الإسلام - قرآناً وسنة - أن هذه الرسالة بطبيعتها رسالة رحمة وسلم وسلام وأمان للناس كافة.

• • • • •

• • •

•

(١) د. محمد عبدالستار نصار: ما بين الإسلام والغرب: صراع أم حوار، ص ١٨٨ - ضمن أعمال ندوة الإسلام والغرب.. حوار أم صراع، كلية دار العلوم، ٢٠٠٢م، القاهرة.

(٢) مالك بن نبي: شروط النهضة ص ٦٧، ٦٨. ترجمة عبدالصبور شاهين - ندوة مالك بن نبى - بيروت.

(٣) مالك بن نبي: شروط النهضة ص ٦٨ - المرجع السابق.

(٤) انظر – بتصرف - الشيخ عبدالله جاب الله: المنهج السلمي في التغيير الاجتماعي، دار المعرفة، الجزائر ص ١٦٤ – ١٦٥ - ١٦٦.

(٥) متفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٦) انظر - بتصرف - الشيخ عبدالله جاب الله، المنهج السلمي.

(٧) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: ج ٤ / ١١١.

(٨) رواه الشيخان.

(٩) رواه البخاري.

(١٠) رواه البخاري.

(١١) رواه البخاري.

(١٢) انظر - بتصرف - الشيخ عبدالله جاب الله، المنهج السلمي.

(١٣) ابن حزم الأندلسي: رسالة في مداواة النفوس ص ١١٦، من رسائل ابن حزم، بتحقيق إحسان عباس - مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد.

(١٤) ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق ص ١١٧.
(١٥) ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق ص ١١٨ - ١١٩.
(١٦) ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق ص ١١٦.
(١٧) ابن حزم: الرسائل مصدر سابق ١٥٠.
(١٨) ابن حزم: الرسائل مصدر سابق ١٥١.
(١٩) ابن حزم: الرسائل مصدر سابق ١٥٣.
(٢٠) المصدر السابق ١٥٨.
(٢١) ابن حزم / طوق الحمامة ٨٥ تحقيق الطاهر مكي / مصر.
(٢٢) طوق الحمامة ٨٦، ٨٧.
(٢٣) حديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه أحمد، ومالك، والبزار.